رواية البيكارسك:
خصائصها وتجلّياتها في "الخبز الحافي" لـمحمد شكري

خالدية جاب الله، جامعة منتوري .قسنطينة

❖❖❖❖❖

ملخص

تتناول هذه الدراسة تعريفا برواية البيكارسك أو (الرواية الشطارية) عن طريق الحفر في أصولها اللغوية والاصطلاحية، ثمّ تعرض لخصائصها مع الربط بينها وبين رواية السيرة الذاتية. وبعد ذلك تستعرض تجلّياتها في رواية "الخبز الحافي" للروائي المغربي محمد شكري، انطلاقا من اعترافه بالانتماء إلى تقاليد هذا الشكل الروائي.

Abstract

This study deals with the definition of the picaresque novel by excavating its linguistic and terminological origins; it presents its characteristics with particular attention to its connection with the biographical novel. The study also reveals the manifestations of this sub-genre in Moroccan novelist Mohamed Choukri's novel, *Bread Alone* (El khobz elhafi), taking as a starting point the novelist's own declaration of belonging to thelong tradition of this novelistic form.

❖❖❖❖❖

لعلّ ما حفّزني إلى الخوض في عوالم الرواية البيكارسكية (Picaresque) هو اعتراف صاحب (الخبز الحافي) نفسه؛ الروائي المغربي الشهير محمد شكري، بالانتماء إلى تقاليد هذا الشكل الروائي، حين قال : "حافزي على كتابتها (الخبز الحافي) بهذا الشكل هو أنني حاولت ضمن **تجربتي** حتى سن العشرين أن أسجل مرحلة زمنية عن جيل الصعاليك في عهد الاحتلالين، **الإسباني** والفرنسي. والدول التي كانت لها هيمنة لا **تقلّ** عن الاحتلالين المباشرين، خاصة في مدينة طنجة الدولية. إنها سيرة ذاتية ـــ روائية ـــ شطارية Novela-Autobiografia- Picaresca. إن الحياة التي عشتها، حتى تلك السن في عشيرة البؤساء والشطار، عن لا قصدية شخصية، كنت أستمدها عن قهر من كل ما هو لا أخلاقي. ومازال هذا النموذج الهجين من الطفولة المغربية يفرزه مجتمعنا المغربي حتى اليوم."[1] فما هي الرواية البيكارسكية؟ ما أصولها؟ وما هي خصائصها ؟ وكيف تجلّت في رواية **(الخبز الحافي)؟**

مدخل إلى مصطلح البيكارسك :

قبل البدء، آثرت الإشارة إلى أنّني تعمّدت اختيار صيغة (بيكارسك) عنوانا أساسيا لهذه الدراسة، نظرا لاختلاف الترجمات العربية لمصطلح (picaresque)؛ فهو التشردي أي (الرواية التشردية) لدى مجدي وهبة،[2] وهو رواية البيكارسك أو رواية الخادم عند ناصر الحاني،[3] وهو الرواية الشطارية عند جمهور الباحثين.

يحيلنا معجم لاروس الايتيمولوجي والتاريخي إلى أنّ مصطلح Picqresque ظهر في الفرنسية سنة 1845 على يد Besch وهو مأخوذ من الكلمة الإسبانية Picaresco المشتقة من كلمة (Picaro) بمعنى : Coquin أي (نذل، لئيم، خبيث...) وتدلّ على نمط لمغامر إسباني.[4]

وبحسب الموسوعة العالمية[5] فإنّ البيكاريسك غالبا ما يدل على مجموعة من الروايات الإسبانية التي تأتي في شكل سير ذاتية (أوطوبيوغرافية) تحكي مغامرات شخصية من أصل وضيع (البيكارو : Le Picaro)، محتال، بلا مهنة، خادم لمجموعة من الأسياد، متشرّد عن طيب خاطر، لصّ أو متسوّل.

ابتدأ هذا النوع في الظهور سنة 1554 عبر تحفة مجهولة المؤلف (حياة لازاريو) (le vie de lazarillo de Tormes) وبلغ أوجّه مع (حياة غزمان) (le vie de Guzaman d'Alfarache de Mateo Aleman) (القسم الأول سنة : 1599- القسم الثاني سنة : 1604). ثمّ أخذ هذا النوع في الذيوع؛ حيث ظهرت روايات متعددة صدرت في إسبانيا، تتّخذ من البيكارو بطلا لها، كما وجد هذا الأدب مكانا خارج إسبانيا، ضمن عدّة أعمال محاكية : في ألمانيا (1668)، فرنسا (1715-1735) وانجلترا (1722-1749)...

وتجدر الإشارة إلى أنّ رواية توماس ناش Thomas Nash المسماة (المسافر النكد) هي أوّل رواية بيكارسكية ظهرت في الأدب الإنجليزي.[6] **وقد** ابتذلت كلمة بيكاريسك حتى صارت "تطلق في الصحافة الحديثة على قصص الحياة الواطئة التي يعوزها التهذيب واللياقة وهذا استعمال لا نظنّه **موفقا**."[7]

كما لا تخفى على العارف بالتراث السردي العربي نقاط التشابه الكثيرة بين فكرة (البيكارو) التي ينبني عليها العمل البيكاريسكي، وفكرة (الكدية) التي تقوم عليها المقامات العربية القديمة، التي استحالت إلى وسيلة للاستجداء والتسوّل والاحتيال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة. وقد اغتدت الهاجس الكبير للمقامة حين ظهرت في القرن الرابع الهجري "فالفكرة الأساسية للمقامات مستوحاة من أحاديث المتسوّلين."[8]

تعدّ رواية السيرة الذاتية (وهي ذات صلة وثيقة بعالم البيكارسك) تجربة رائدة في أدبنا الحديث، مارسها الكتّاب بوصفها وسيلة إبداعية لحكي مراحل حياتهم والتأريخ لها بدءا من الطفولة إلى مرحلة النضج الجسدي والفكري. وهي بذلك "نصّ سردي يتميّز عن الرواية المروية بضمير المتكلم بأنّه لا يقدّم متخيّلا وهميا بل يعرض الأحداث الحقيقية التي وقعت **للراوي/الكاتب**"،[9] إذ يلجأ الكاتب إلى تعرية نفسه أمام القراء بسرد أحداث خاصّة جدّا ـــ **قد** لا يعرفها سواه. ويرى بعض النقاد أنّ كاتب السيرة الذاتية كلّما كان صادقا في سرد الماضي كلّما توّجت سيرته بالنجاح، لما في ذلك من صدق في نقل الأحداث الحياتية بكلّ أمانة.

يحيلنا هذا الحكم إلى الحديث عن رواية السيرة التي توغل في سرد الأحداث بصدق لا مثيل له، وبتصوير الأحداث كما وقعت دون حذف أو تزييف، والتي أطلق عليها تسمية "الرواية البيكارسكية"* أو "الرواية الشطارية" التي ترصد حياة البيكارو أو البطل الذي يعيش حياة مليئة بالاستهزاء بالقيم المجتمعية السائدة، واستعمال أساليب الشيطنة والمغامرة، وهو بذلك **بطل شطاري.**

لهذا جاء نصّ "الخبز الحافي" لمحمد شكري نصّا شطّاريا طليعيا **"خلخل إلى جانب إنتاج** السبعينيات الطليعي مفهوم الكتابة السردية بالمغرب، وساهم بدوره في تخليص النقد الروائي **من سلطة الاعتبارات** الإيديولوجية. فقد أثارت "الخبز الحافي" فضول المثقفين المغاربة بسبب مصادرتها وأسلوب كتابتها أيضا، فأولوها اهتماما كبيرا تترجمه كتاباتهم النقدية المتعاطفة مع كاتبها والبحوث الجامعية التي يؤطرونها."[10]

رواية غير مسبوقة على مستوى البوح والنبش في الذاكرة وتعرية **الذات كاملة أمام القارئ،** إذ يكشف الروائي **ـــ الصوت المتحدث ـــ كلّ** الحقائق الحياتية التي مرّت به. فنلفيه يبدأ **في سرد أحداث الطفولة وصولا إلى مرحلة الشباب** (إلى أن بلغ من العمر عشرين عاما) بطريقة درامية ملفوفة بكثير من الحزن والمأساة، حيث يعجز القارئ الذي يشرع في قراءة الرواية للوهلة الأولى عن التوقف والعودة إليها لاحقا.

هي رواية أقّل ما يقال عنها إنّها رواية **مباغتة** لكونها تصوّر بتراجيدية عجيبة، صادقة،

وواضحة طفولة بائسة جدّا، أب متسلّط وأم مغلوبة على أمرها، ظروف معيشية سيئة للغاية في حقبة زمنية اتّسمت بالوجود الاستعماري الفرنسي والإسباني في المغرب الأقصى.

العمل الروائي (الخبز الحافي) عبارة عن مذكرات كتبت سنة 1972 ثمّ حوّلها صاحبها إلى رواية من خلال عنوان الرواية التالي (الخبز الحافي/سيرة ذاتية روائية 1935ـــ 1956). وهي تقع في 228 صفحة من الحجم المتوسط، مقسّمة إلى 13 مقطعا.[11]

سنورد في البداية تلخيصا للعمل الروائي الذي نحن بصدد تحليله حتّى تكون الصورة واضحة لقارئ الدراسة.

ملخّص الرواية :

يعيش محمّد ـــ كما سبق الذكر ـــ طفولة بائسة على كلّ الأصعدة، فيتحوّل بفعل مجموعة من الخيبات إلى طفل مشرّد، بعدما أقدم أبوه على قتل أخيه (بمحض الخطأ أو بالعمد)، فيودّع في داخله الطفولة التي تكبر وتزهر في كلّ واحد منّا. ومع مرور الأيّام يجبره الأب على أن يعمل خادما في أحد المقاهي فيتحوّل تدريجيا إلى حشّاش وسكير، و(بلطجي) ـــ إن صحّ القول ـــ فيدخل في شجارات عنيفة مستعملا في أغلبها (موس حلاقة) ليرهب خصمه ويتغلّب عليه، وحين تتقدّم به السنّ قليلا يدخل عالما آخر، وهو عالم الجنس، فيعاشر نسوة كثيرات جدّا ويعمد في سرده لتلك العلاقات العابرة المجنونة إلى وصف التفاصيل بلغة فاضحة؛ حيث وصلت إلى درجة تسمية الأعضاء

الجنسية ـــ في جسد الرجل والمرأة على حدّ سواء ـــ بمسمياتها السوقية الساقطة.

تتواتر الأحداث فينتقل **محمد من طنجة** للعيش **في** وهران وهناك يجد نفسه خادما لدى عائلة أجنبية فيقع في هوس إعجابه **با**لسيدة الأجنبية وانجذابه إليها، ويشرع في وصف لحظات نشوته الخيالية، وحين تكتشف هذه الأخيرة الأمر وهو **قابع في** قبو بيتها ممسكا بألبوم صورها وهي شبه عارية في البحر، **تؤ**نبّه وتحذّره من تصّرفاته، فيغادر مبيّتا عدم الرجوع للعمل. في المقابل يقدم (محمّد) بعدها على عمل مخلّ بالحياء حيث يداعب طفلا صغيرا وهما معا في الحقل الأمر الذي جعل خالته تؤنبه، فيحمله ذلك على مغادرة وه**ران والعودة إلى تطوان, عند** عودته يشعر بالضياع أكثر فأكثر فتتلقفه الشوارع، فلا من بيت يؤويه ولا من عمل يسدّ جوعه، إلى أن يتعرّض للاغتصاب على يد شيخ توقف له بسيارته **وا**صطحبه إلى غابة خالية. **تتواصل** مغامرات محمد إلى أن يتعرّف على صديق يساعده في العثور على عمل يسترزق منه، بحيث يقنعه بالعمل حمّالا للبضائع المهرّبة، وفعلا يعمل وهو **في سنّ السابعة عشرة** ليثبت لنفسه أنّه صار رجلا. وأخيرا يقرّر بمساعدة أحد الأصدقاء أن يقدم على مغامرة التعلّم وهو **و**الذي حرم من المدرسة طيلة **العشر**ين سنة الماضية، متسلّحا برغبة وإرادة قويّتين **في الدخول إلى عالم العلم.**

خصائص الرواية البيكارسكية وتجلياتها في (الخبز الحافي) :

تتميّز الرواية البيكارسكية بجملة من الخصائص:[12]

- صعلكة البطل وتمرده على الواقع المؤسساتي.
- معايشة البطل لمجموعة من المكائد والمحن، إضافة إلى التمرد والتشرد الشطاري.
- طابع السيرة الذاتية.
- التهجين الأسلوبي، واستعمال المبتذل من الألفاظ.
- الإباحية والاحتيال، وجدلية الذاتي والموضوعي في الصراع بين القيم المنحطة والقيم الأصيلة.
- الانطلاق من فلسفة العبث والسأم والقلق الوجودي، والضياع التشردي.

وواضح أنّ رواية (الخبز الحافي) قد استحوذت على نصيب كبير من هذه الخصائص؛ ذلك أنّها تستطرد في البوح الشفيف على لسان بطلها المركزي المتمثل في (محمّد) وهو الروائي نفسه على اعتبار الرواية سيرة ذاتية (شطّارية) تروي فترة حياتية معيّنة، من خلال استعمال ضمير المتكّلم لما يكتسيه من أهمّية كبيرة، فمن خلال المعيار اللساني الضمير (أنا) يرتبط بالراوي الذي يسرد الأحداث بلسانه. فضمير المتكلّم في السرد يجعل الحكاية المسرودة أو الأحدوثة المروية مندمجة في روح المؤلّف، فيذوب الحاجز الزمني القائم بين زمن السرد وزمن السارد،[13] كما من شأنه أن يعرّي الحقائق ويكشف عن النوايا بصدق.

يهيمن الراوي على الحكي باعتباره صاحب الشأن الذي عايش الأحداث مباشرة، فمن خلاله تدرك عوالم الحكي الروائي، استنادا إلى الإخبار عنها كما وقعت وإن كان في غير زمان وقوعها، فهو له القدرة الخفية على الإقناع

بمأساوية الظروف المعيشة آنذاك، فـ"غالبا ما تتحدّث الشخصية ولا تخشى رقابة القوانين والنظم الأخلاقية والإجتماعية، تتحدث كأنّها في هذيان أو في حلم من أحلام اليقظة".[14] وفي حرص الراوي (محمد) على الحكي بطريقة مميّزة، فإنّه يختصّ القارئ بذلك، ليولجه في عالمه السردي ويجبره من حيث لا يتوقّع على مشاركته انفعالاته. كما أنّنا نقف على أهمّ مميزات الرواية البيكارسكية (الشطّارية) ألا وهي صعلكة البطل وعطالته، وكذا مواجهته لجملة من المحن والمكائد.

فنجد محمد شكري يتحدّث عن سبب كتابته الجزء الأوّل من سيرته ضمن الأدب البيكارسكي (الشطارية) بقوله : "... حافزي إلى كتابتها بهذا الشكل، هو أنّني حاولت ضمن تجربتي حتّى سنّ العشرين أن أسجّل مرحلة زمنية عن جيل الصعاليك في عهد الاحتلالين الإسباني والفرنسي"، كما رأينا سابقا.

ولعلّ سرّ الولوع بهذا الأدب الشطّاري على حدّ قول شكري، يعود إلى التأثر المباشر بالأدب الإسباني (المنشأ الأصلي للبيكارسك كما رأينا في مدخل الدراسة) إذا سلّمنا بالتقارب الجغرافي والثقافي المغربي الإسباني. ويستمر شكري في التأسيس لهذا النوع الروائي من خلال الجزء الثاني لسيرته الذاتية المسمى "الشطّار" والذي صاغه بطريقة مغايرة لـــــــــــ"الخبز الحافي" الذي لم يفلسف الأمور فيه وأسقطها وفق انفعالاته، أمّا "الشطّار" فقد زان تجاربه السابقة وقولبها وفق مقتضيات الحكي.

غير أنّ الاختلاف بين الأدب الشطاري الإسباني وهذا النص الروائي المغربي يكمن في أنّ الأخير

لا يسعى إلى البرجوازية كما هو حال البطل الشطاري الإسباني، وإنّما إلى المعرفة التي من شأنها تحويل الشخصية المهمّشة إلى ذات لها مدلولها. وبالتالي فإنّ شكري الذي يمثّل نموذجا حيّا عن شطّار ذلك الزمن لا ينظر إلى ماضيه على أنّه خطيئته، وإنّما بوعي كبير يرجعه إلى كلّ الظروف الصعبة، فيحاكي واقعيته وهجاءه للقيم التي سادت آنذاك، متحدّيا كلّ الأعراف والقيم المبتذلة.

يقدّم السرد بطريقتين: إمّا بطريقة موضوعية (سرد موضوعي) أو بطريقة ذاتية (سرد ذاتي). [15] وقارئ رواية (الخبز الحافي) يكتشف أنّه محاط بهالات من السرد الذاتي وإن ألبسه الروائي لغة موضوعية معرفة منه بمدى استعصاء تحويل الوقائع التي عاشها فعلا إلى رواية تخييلية خاضعة لكثير من التأثيث خاصّة وأنّ طابع الرواية الأبرز كان أوطبيوغرافيا.

وللتعبير بعمق عن صدماته راح يستفزّ اللغة على أن تجود عليه بالكثير من الوصف الدقيق، منطلقا من فلسفته العبثية وقلقه الوجودي فجاءت عباراته في شكل حوارات تنمّ عن ضياع تشرّدي، يقول :

(في اللّيل يسمع عواء الثعالب قرب الخيمة التي ننصبها حيثما يوقفنا التعب والجوع، الناس، أحيانا، يدفنون موتاهم حيث يسقطون. أخي يسعل ويسعل. سألت أمّي خائفا :

- أهو أيضا سيموت ؟
- كلا. من قال لك أنّه سيموت؟
- خالي مات.

أخوك لن يموت. هو فقط مريض.) [16]

كما أنّ التهجين الأسلوبي والتعبير اليومي المبتذل برز كثيرا في المقاطع التي تصف علاقته **بالجنس الآخر.**[17] وهو إذّاك يتحدّث بلغة جنسية مفرطة تعكس طريقة نشأته. بحيث **إنّ** الشراهة الجنسية التي تظهر في مقاطع تنمّ **عن** شراهة حقيقية، فالراوي لا يكتفي بالتلميح **إلى** جوعه الجنسي، بل يذهب إلى أبعد من ذلك مستعملا لغة حقيقية. [18] وهو في كلّ ذلك يخضع لغته لإباحية مفرطة، فيقع فيما يمكن أن نسمّيه (جدلية **الذاتي والموضوعي**).

زمن الخطاب :

يعدّ الزمن في الخطاب الروائي قاعدة أساسية لتشكّله، فـ"الزمن نسج، ينشأ عنه سحر، ينشأ عنه عالم، ينشأ عنه وجود، ينشأ عنه جمالية سحرية، أو سحرية جمالية... فهو لحمة الحدث، وملح السرد، وصن الحيّز، وقوام الشخصية".[19]

ونحن نحاول في رواية (الخبز الحافي) اقتفاء مسار الزمن نكون مجبرين على التعريج على زمن القصّة الذي يبتدئ حسب ما أدرجه **الروائي في مغلّف** روايته بين (1935-1956) وهي الفترة التي شهدت مولد وترعرع الروائي، ومروره بكلّ تلك الأحداث، "إنّ الحكاية لا تتجسّد ناضجة مستوية، وواضحة متبلورة، في شريط الذاكرة الناطقة (الملكة المملية)، إلاّ بعد مرورها بشبكة من المراحل قد تتعدّد وتطول، وقد تتعدّد وتقصر، وهي في الحالين متجسّدة في عالم المخيّلة الخلفية التي تمدّ الملكة المملية."[20]

أمّا زمن الخطاب فيبتدئ سنة 1972 **من حاضر المتكلّم، أي السنة التي شرع في كتابة**

مذكراته، ومن هنا فإنّ سيرة (محمّد) يمكننا تقسيمها حسب الزمان إلى مراحل عدّة، تتمثل في :

مرحلة الطفولة : وتعدّ شاهدا حيّا على المأساة التي كابدها منذ صغره؛ بحيث لم يلتحق بمقاعد المدرسة، وبقي أمّيا إلى مرحلة متقدّمة من شبابه، ضف إلى ذلك جبروت الأب الذي حوّله لا شعوريا إلى طفل معقّد، فقد كره والده كرها شديدا، وكان يسبّه ويلعنه في قرارة نفسه وينعته بـ(الوحش)، كيف لا وهو الذي قتل أخاه أمامه، ومشى في جنازته كأنّ شيئا لم يكن، يقول: (أخي يبكي، يتلوّى ألما، يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! **مجنون! امنعوه**! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوّى. الدم يتدفّق من فمه...) .[21] **منذ ذلك** اليوم و(محمّد) يزداد كرها لوالده، ورغبة جارفة في الانتقام منه.

يضعنا الروائي من خلال بنائه السردي أمام جملة من التقلّبات التي تحيط بالراوي (محمد)، فيدخل هذا الأخير في التمثيل لانفعالاته بالحوار تارة، والوصف تارة أخرى، ويروي لنا سلسلة من المشاهد التي من شأنها أن تؤرّخ لطفولته ـــ **المبتورة**، كما تبرز المعاناة والتهميش بشكل لافت في هذه المرحلة، نتيجة الفقر والظلم الذي كابدهما، و"لا شك أنّ أكثر الذكريات التصاقا بالنفس وأكثر قربا منها وأشدّها فاعلية في **بعث الفرح** (...) هي ذكريات زمن الطفولة"،[22] وهذا ما لم يشعره يوما الراوي، الذي جاء سرده محموما **بالحزن والمأساة.**

❖ مرحلة المراهقة : وفيها صار الراوي يعايش وضعا اجتماعيا ونفسيا جديدا، وتحوّلت مراهقته إلى مزيج من التشرّد والانفلات الأخلاقي والاحتيال **الشطّاري الذي** سيبلغ أوجّه في المرحلة التالية .

يتحوّل (محمد) تدريجيا إلى حشّاش، ويدخل **عالم الجنس** من بابه الواسع مع العاهرات العربيات (المغربيات) والأجنبيات (الإسبانيات).

❖ مرحلة الشباب: وهي مرحلة **الانفلات من رقابة** الوالدين (الموجودين/الغائبين)، مرحلة الضياع التي لا تلبث أن تتحوّل إلى مرحلة هامّة وحاسمة في حياة (محمد)؛ حيث يتعرّف الراوي على صديق جديد تمثل في شخص (الكبداني) الذي أدخله عالم تهريب البضاعة المسروقة، وعرّفه على رئيسه، في هذه المرحلة يعمل (محمّد) جاهدا على أن يكون في مستوى المهمّة. فنراه يصف لنا مشهدا حيّا ليلة تهريب البضاعة بقوله : (شرع الحمّالان العاريان حتّى النطاق يدفعان الزورق إلى البحر والكبداني رافع المجدافين عن الماء. رأيت الكبداني يختفي في ضباب الليل وهدير الأمواج.

وضعنا بسرعة صندوقين في كلّ كيس. قال لي القندوسي، بعدما انتهينا من ربط فوهات الأكياس :

- **إذا لم** تكن قادرا على حمل صندوقين فاحمل **واحدا.**

قلت له واثقا من نفسي :

إنّني أقدر أن أحمل ثلاثة صناديق إذا شئت

أردت أن أتحدّى قوّتي وسنّي. ربّما ما يدفعه إلى الشك في قوّتي هو نحول جسمي.... إنها

مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إنّ مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر.) .[23]

بعد أيّام على هذه الحادثة قرّر محمد أن يخوض تجربة مصيرية في حياته، **لتعلّم القراءة** والكتابة، وهي أوّل لحظات النشوة الحقيقية ورغبة جارفة في دخول هذا العالم الذي حرم منه صغيرا، يقول : (في الصباح بعد صعودي من الميناء، ذهبت إلى مكتبة في واد أحرضان واشتريت كتابا لتعلّم مبادئ القراءة والكتابة بالعربية) .[24]

ممّا سبق، فإنّ الراوي عايش الزمن على جميع المستويات، فهو حين يعاني فليس ذلك دليلا على المعاناة الذهنية والمجرّدة فقط، وإنّما معاناة **من البؤس المادي بالدرجة الأولى،** حيث يحيلنا عنوان الرواية (الخبز الحافي) على درجة الفقر والمعاناة التي جعلت (محمد) يتحوّل إلى شيطان، إذ يقول في آخر سطر **من** روايته: (أخي صار ملاكا. وأنا؟ سأكون شيطانا، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين.

لقد فاتني أن أكون ملاكا) .[25]

فضاءات "الخبز الحافي" :

يمثّل الفضاء الطنجاوي محورا أساسيا في سيرة "الخبز الحافي" باعتباره العامل المهم في تكوين وبلورة شخصية محمد، وهو الذي أفرز كل **تلك التحوّلات التي تحدّد مساره لاحقا.**

شهدت طنجة الاحتلال الفرنسي والتواجد الإسباني وهما كفيلان بأن يخلقا فضاء سياسيا، ويفرزا نمطا معيشيا معيّنا له أبعاده التاريخية والاقتصادية التي تتحكّم في المجتمع، لتخلق جملة من المشاعر السلبية عند الأفراد. وإنّ لتأثير هذا الفضاء الموبوء تاريخيا واجتماعيا إسقاطاته على الطفل محمد، الذي تشرّب ملامح الشخصية الشطّارية.

يعدّ فضاء مدينة طنجة بؤرة السرد المركزية، بدءا من نزوح البطل وعائلته من ريف (بني شيكر). كما يلعب فضاء مدينة تطوان دورا مهمّا خاصّة بعد هروب محمد من سلطة الأب، بحيث يجد في مدينة تطوان فسحة أكبر بعد تحرّره من السلطة الأبوية القاسية، ليشدّ رحاله بعدها إلى **فضاء مد**ينة وهران يقول : "هنا أيضا في وهران الحياة ليست سهلة، لكنّنا مادمنا نستطيع **الحصول على الخبز والبصل فإنّ كرامتنا ستظلّ مصونة**"،[26] لكن لا يلبث أن يغادر الراوي فضاء وهران ليعود إلى تطوان، وبالتالي فهو فضاء لم يستغرق مدة زمنية كبيرة، وهو شبيه إلى حدّ كبير بفضاء الريف الذي انحدر منه محمد وعائلته.

هذا الفضاء المديني المتغير شتّت لحمة محمد العاطفية في خلق علاقة طبيعية-حميمية بالمكان "ولمّا كانت علاقة هذا الأخير بذلك المكان، ذات طبيعة توترية، فإنّ الشعور الأكثر بروزا هنا، هو الإحباط والانفصال، والإحساس **بالعجز والتحج**م وحقارة الذات، نتيجة لتلك المادية المفرطة التي يتميز بها هذا **المكان**".[27]

اشتملت هذه الفضاءات الثلاثة على أشكال عدّة من الأمكنة التي عرفها الراوي محمد وساهمت أيضا في توطيد علاقته بواقعه وهي : (الأحياء الشعبية، المقاهي، الشوارع، بيوت الدعارة، الأسواق، المقبرة، الشاطئ) وهي جميعا أماكن غير مستقرة في حياة الراوي، فنجده خلالها يروم الاستقرار والتعويض فيها عن الحياة اليومية البائسة.

ويعدّ فضاء المقهى حلقة ربط بين الجيد والرديء في زمن الراوي محمد، الذي حدثت معه مفارقات عجيبة كان للمقهى دور فاعل في قلب حياته، فبعد أن تعلّم تعاطي المخدرات والحشيش في المقهى لقوله : " ... أدخّن الكيف والسجائر في الخفاء. حين أتسخّر لأحد زبناء المقهى يعطيني "سبسيا" من الكيف أو كأس خمر أو قرصا من معجون الحشيش..."[28] استطاع في الأخير بفضل مقهى (سي موح) أن يتعلّم المعرفة ويفلت من عالم الرذيلة والتشرّد، بفضل شخصية (عبد المالك)، يقول : " ...أفضل رواد المقهى يكتب اسمه بصعوبة. كنّا نعتبره أهمّ شخص يتردّد على المقهى. يقرأ لنا الصحف والمجلات الشرقية العربية بصوت قويّ وواضح".[29] ثمّ حدث أن عيّر عبد المالك البطل يوما في مشاحنة كلامية دارت بينهما، يقول : "فقد السيطرة على أعصابه وقال غاضبا : (أسكت يا هذا الأمّي. أنك لا تعرف حتى كيف تكتب اسمك وتريد أن تحشر نفسك في الموضوع".[30] كان لهذه الحادثة دور مركزي في حياة البطل (البيكارو) نقله من أمّيٍ إلى متعلّم بعدما اقتنى كتابا لتعلّم مبادئ القراءة والكتابة باللغة العربية.

وعموما فإنّ (الخبز الحافي) يمكن أن يعدّ صيغة عربية نموذجية لرواية بيكارسكية تستوفي جلّ أصولها ومقوّماتها.

الإحالات :

1 - محمد شكري: (مفهومي للسيرة الذاتية الشطارية)، ضمن الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1981، ص 321. نقلا عن جميل حمداوي : الرواية البيكارسكية أو الشطارية، متاح على موقع : http://www.anfasse.org

2- مجدي وهبة : معجم مصطلحات الأدب انكليزي_فرنسي_عربي، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص 403

3 - ناصر الحاني : المصطلح في الأدب الغربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1967 ، ص 71

4- J. Dubois (et autres) : Larousse –Dictionnaire Etymologique et Historique du Français-, Ed. LAROUSSE 2006, P 624 (Picaresque) .

وانظر أيضا :

Jacquline Picoche : Le Robert, Dictionnaire Etymologique du Français, les usuels du Robert, Paris. 1994. P 433.

5http://www.universalis.fr/encyclopedie/roman-picaresque/ressources

6 - ينظر : ناصر الحاني، المصطلح في الأدب الغربي، ص .71

7 -نفسه، ص .71

8 -عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1983، ص .41

9 - لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي-انجليزي-فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، 2002، ص 111

*و تعني هذه الرواية ذلك المتن السردي الذي يرصد حياة البيكارو أو الشطاري المهمش.

10 - فاتحة الطايب: التجاوز المؤسس ("الغربة" لعبد الله العروي، و"الخبز الحافي" لمحمد شكري)، متاح على موقع : http://www.minculture.gov.ma/index.php?option=com_content&view=article&id=351:fatiha-tayeb-aroui-choukri&catid=51:etude-et-essais&Itemid=153

11 - اعتمدت في هذه الدراسة على الطبعة الثامنة للرواية_ الصادرة عن دار الساقي ببيروت، عام 2004

12 -جميل حمداوي، الرواية البيكارسكية أو الشطارية، **مرجع سابق.**
13- ينظر : عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية-**بحث في** تقنيات السرد- سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر، 1998، **ص** 185/184 .
14 -د. بيار خبّاز، محمود تيمور وعالم الرواية في مصر (دراسة نفسية تحليلية)، ط1، **دار المشرق**، بيروت، 1994، **ص** .232
15 -ينظر : حميد الحمداني، بنية النصّ السردي، **-من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر** والتوزيع، ط 02، بيروت، 1993ص 47
16- **الخبز الحافي** : 10
17 -أنظر مثلا موضع روايته لعلاقاته الجنسية مع بائعات الهوى (**الخبز الحافي: ص** 49)
18 -ينظر : جورج طرابيشي، الروائي وبطله (مقاربة اللاشعور في الرواية العربي)، ط1، دار الآداب، بيروت، 1995، **ص** .126
19 - د. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص .207
20 نفسه، ص .211
21 - **الخبز الحافي** : 12
22 - قادة عقاق : دلالة المدينة في الخطاب الشعري **العربي المعاصر** -دراسة في إشكالية التلقّي الجمالي للمكان-، **منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق**، 2001، **ص** .369
23 - **الخبز الحافي** : 156
24 - نفسه : 225
25 - نفسه : 228
26 - **الخبز الحافي : ص** .54
27 - نفسه : 261.
28 - **الخبز الحافي**:.30
29 - نفسه : .215
30 - نفسه : 219.